٩ دار الافتاء خرجت من التقوقع :

الاسلام يرفض هذه الوصاية

بقلم

دكتور عبد الصبور مرزوق

من حق العالم الفاضل الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى جمهورية مصر العربية أن نذكر له بكل التقدير والاعتزاز أنه خرج بدار الافتاء من حالة التقوقع التى كانت فيها مما جعل الإسلام وعلماءه يبدون فى مثل حال أهل الكهف عاجزين عن معايشة قضايا الناس ومشكلاتهم فضلا عن أن يكون لهم فى حلها اسهام !!

ثم جاء الشيخ الدكتور طنطاوى نموذجا للأزهرى المستنير الفاقه لدينه والذى يجمع بين أصالة الدراسة وروح معاصرة الواقع بمستجداته ، فقام بهذا الاقتحام الشجاع لبعض المسائل القلقة فى حياة الناس والتى تبلبلت فيها آراء الكثيرين بين الحل والحرمة وبات الناس حيارى لا يطمئنون إلى الطريق الحق حتى يمضوا عليه .

وبأسلوب العالم الهادئ والفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم بالمشورة الأمينة للصفوة من العلماء تبرع فى التصدى لواحدة من هذه القضايا القلقة وهى « شهادات الاستثمار » وأصدر بيانه الشهير بما هداه إليه اجتهاده ، والمجتهد فى كل الأحوال وان أخطأ مشكور ومأجور كما علمنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

O O O

بيد أن ثمة طائفة من أولئكم الذين اسماهم البعض « فقهاء البنوك » تلاقت مواقعهم ومواقفهم مع بعض الصحفيين وتكونت من الفريقين « مجموعة عمل » كان من أبرز قسماتها حسب ما لوحظ من ممارساتهم فى الأعوام الأخيرة :

□ الصمت عن الممارسات الكثيرة التى تورطت فيها شركات لتوظيف الأموال وبعض البنوك الإسلامية واضاعت بسببها مئات الملايين من الدولارات فى « المقامرة » على العملة التى يسمونها زورا « تجارة » .

□ التبرير الغريب لعمليات نزح الطاقة الاقتصادية لمصر والمتمثلة فى

مدخرات وودائع أبنائها من العاملين فى الخارج والتى كانت شركات الأموال والبنوك الإسلامية جميعها تودعها فى الخارج حيث تسهم هذه الملايين فى تقوية المؤسسات المسيطرة على الاقتصاد فى الغرب كله وتحرم منها مصر فإذا اضطرت مصر تحت ضغط الحاجة إلى تمويل بعض مشروعاتها أو حتى لاستيراد الدقيق للشعب واقترضت بالفائدة المرهقة وقف هؤلاء يصرخون على المنابر الدولة تتعامل بالربا مما يذكرنى بالمثل الشعبى الشهير « يقتل القتيل ويمشى فى جنازته » .

□ الزعم بأن هذه الشركات وهذه البنوك هى الصورة المثلى للاقتصاد الإسلامى مع أن الهيكل الذى قامت عليه هو هيكل الشركة المساهمة وهو هيكل غربى رأسمالى قوامه تكريس سيطرة ومصالح الأغنياء حيث يكون القرار والتصويت للسهم لا للشخص وفى هذا مناقضة صريحة للتحذير القرآنى الذى نهى عن ذلك وحذر من احتكار الأغنياء للثروة لما يؤدى إليه ذلك من مفاسد حيث قال الله تعالى فى سورة الحشر منذرا من يخالف ذلك بالعقاب الشديد :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ . (الحشر ٧) .

O O O

والصورة الإسلامية فعلا لأى مؤسسة مالية تحمل اسم الإسلام هى الصورة التعاونية التى يكون لصاحب السهم الواحد فيها من الرأى والمشاركة مثل ما لصاحب الألف سهم حتى لا يغلب الأغنياء الحق بأموالهم كما حذرنا القرآن وكما كان عليه الحال فى مجتمع المدينة ، ولنتذكر أن عمر رضى الله عنه لما « طعن » جعل الأمر شورى فى ستة من كبار الصحابة كان فيهم الغنى والمستور الحال ، ومع ذلك كان الأمر بينهم شورى فى اختيار الخليفة ولم يكن للغنى صوتان وللمستور صوت واحد وهذا هو الإسلام .

لكن أصحابنا هؤلاء يغمضون أعينهم عن فساد الهيكل من أساسه لأنه يتفق ومصالحهم الشخصية المرتبطة دائما بالأغنياء وبسيطرة رأس المال فهم الذين يملكون أن يعينوهم مفتين ومستشارين أما الفقراء فأنى لهم ذلك ؟!.

□ محاولاتهم الدائبة لطرح مسالة « الربا » والتركيز الاعلامى الصاخب عليها وكأن الإسلام كله قد انحصر فيها ، وصمتهم المطلق عن الجوهر الأساسى للقضية وهى قضية المال والثروة فى الإسلام.

فالمئات من أبناء المسلمين يموتون كل يوم جوعا فى آسيا وأفريقيا ولم نسمع لاصحابنا أى صوت يناشد الآخرين أن يفعلوا شيئا للأكباد الجائعة والتى اعتبرها خامس الراشد بن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أولى بالصدقة من البيت الحرام .

وحين حدثت المجاعة فى أفريقيا وطحن الجوع أطفال المسلمين وشيوخهم لم نسمع لاصحابنا أى صوت .

□ فى الوقت الذى يغمضون فيه أعينهم عن « الخشبة » فى عيون الآخرين يحدقون باهتمام ليبحثوا عن « القشة » فى عيون مصر .

قرض أم وديعة ؟

أصحابنا لا يعنيهم ذلك ولا يفكرون يوما فى الاقتراب منه لأنه يغضب عليهم سادتهم بينما تعقد اللقاءات والندوات للنظر فى أمر سيدة فقيرة أرسل اليها زوجها الكادح فى بلاد الله مائة جنيه فذهبت إلى أحد البنوك وأودعتها فيه لتحافظ عليها بعيدا عن يدها من ناحية ولتحصل منه على قرشين . من ناحية ثانية ..

هنا فقط تتحرك جماعة الضغط على الفقراء لحساب الأغنياء لتنظر فى توصيف هذا المبلغ أهو قرض ؟ أم وديعة ؟

قرض ؟! نعم يقولون ذلك وبإصرار هذه السيدة المسكينة – عندهم – أغنى

من البنك – وخصوصا إذا كان من بنوك الاسلام – وهى قد اقرضته هذا المبلغ وعليه فلا يجوز لها أن تأخذ من ورائه أى عائد لأن كل قرض جر نفعا فهو ربا . هكذا المحتاجة تصرخ لا تجعلوه قرضا سموه « وديعة » وهاتوا لى من ورائه أى حاجة .

جماعة الضغط على الفقراء فى ندوتها العتيدة ترفض هذه الاستغاثة وتقول هذه المرأة لا تستحق لى عن المائة جنيه أى ربح لأن « الخراج بالضمان » وبالغنم البنك وخاصة – إذا كان اسلاميا – هو الضامن فهو الذى يأخذ الربح وحده أهذا كلام أهذا اسلام ؟ الم تسمعوا يوما أن الامام عليا رضى الله عنه لفق بتضمين الصناع حين ظهر فيهم عدم الأمانة .

عدم الأمانة ؟ فى زمان لم يكن العهد بالرسول ﷺ ببعيد فكيف بهذا الزمن الذى أصبح فيه الاحتيال حرفة وأحد معالم الشطارة والمهارة ؟

لكن أصحابنا لا يعنيهم ذلك وانما يعنيهم – اعفاء البنك – وخاصة إذا كان اسلاميا يلى أمره سادتهم من كل مسئولية .

ومعنى هذا ان البنوك فى ظل الاسلام الذى يفهمونه لها الحق المطلق فى العبث بأموال المودعين كما تشاء وان تقدمها للأحباب والأصحاب يصنعون بها المشروعات وينمون بها الثروات ويعلى لهم البنك فى سدادها ريثما يصبحون من أصحاب الملايين ولا مانع ان يلتمس لهم العذر فتجدول الديون مرة ومرة ثم يقال انهم مساكين – لا يملكون الا مليونا أو مليونين مساكين والآية تقول – هكذا يتطوع المفتون ﴿ وأن تصدقوا خير لكم ﴾ يعنى لماذا لا تعتبر هذه ديونا معدومة وبالفعل تعدم .. تعدم لصالح الأغنياء والمحتالين وعلى المودع المسكين أن يصمت والا صرخوا فى وجهه اتريد ان تقبل العوض ؟! إن هذا حرام .. أقول فهل هذا اسلام ؟

الاسلام المظلوم

لقد ظلم الاسلام كما لم يظلم على أيدى هذه الجماعات الضاغطة التى أيقظها بيان الدكتور المفتى فاذا هم ينصبون هذه « المناحة » مصرين بكل ما يملكون على فرض وصايتهم على اقتصاد مصر بل وعلى الاسلام نفسه .

ولست بحاجة إلى ترجيح الفتوى فهى فى غير حاجة إلى ذلك . بل لقد رجحها ودعمها من هم خير منى وأعظم علما وفضلا على نحو ما فعل الشيخ الجليل عبد الله المشد وما فعل الصديق الأجل الشيخ محمد الغزالى . والمفكر الصديق الشامخ دائما خالد محمد خالد أكثر الله من أمثالهم يصدعون بالحق فى وجه طوفان الباطل .

□□□

ومن حق المواطن أن يتساءل إذا كان الحق فى جانب المفتى وإذا كان العلماء الاعلام قد أيدوه فلماذا يستشيط أصحابنا غضبا على هذا النحو الغريب .

وأقول مصدر الفزع الأكبر عندهم ليس لأن المفتى رجل دولة فحسب وانهم دائما معادون لكل ما يصدر عن الدولة حتى ولو كان الحق .

ولكن لأن المفتى اعلن انه – واخذ على نفسه ما يشبه العهد – بانه سيعمل باقصى ما يستطيع على حمل رجال الاقتصاد فى مصر وحمل الدولة من ورائهم على ايجاد الاساليب الاقتصادية المبرأة من أى شبهة ربا .

والمفروض أن يكون هذا ما يتمنونه – لو خلصت النيات – لكن الأمر ليس كذلك . لأنه إذا أصبحت كل بنوك مصر تعمل بعيدا عن أى شبهة ربا فماذا يبقى لهم هم انهم يريدونها ، « اسلامية ملاكى » يفتون لها ويربحون منها وصحفيون كذلك لا يريدون للمشكلة ان تحل أبدا لتستمر ورقة بأيديهم للضغط والمزايدة وإذا كانت خطوات المفتى ستصل بهم إلى هذا الضياع فكيف يسكتون عنه ؟

□ □ □

تلك هذه القضية فى صورتها العامة جماعة ضغط ذات مصالح شخصية تريد - بكل الطرق - ان تفرض وصايتها على مصر وعلى الاسلام يقف فى وجهها رجل نظيف اليد واللسان والقلب يريد أن يعمل شيئا يزيح به كابوس القلق عن صدور مواطنيه لكن الآخرين لا يريدون .

□□□

ولأن الاسلام العظيم هو فى النهاية الذى يدفع الثمن فانى أناشد الغاضبين .

* أن يصطنعوا القليل من الانصاف ان ايدوا أو عارضوا .

* أن يستيقظوا من أحلامهم فى محاولة فرض الوصاية على مصر أو على الاسلام فقد باتت الشعوب على مستوى من الوعى يصعب خداعه .

* أن يرفقوا بالاسلام ويحاولوا رفع الظلم الفادح الذى يوقعه به آخرون ليس من بينهم المفتى والله من وراء القصد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .